إلى مدينة قيصر

خرج امرؤ القيس من تيماء فى صحبة صديقه عمرو بن قمية بعد أن تـرك فى القصر الأبلق ما كان معه من الأموال التى بقيت له من ميراث أبيه، والدروع الثمينة والتحف والسلاح، وكل ما تخلف من آثار الملك حجر، لتكون فيه وديعة حتى يعود.

وخلـف هناك كذلك أخته العزيزة هنـدًا بنت حجر فى صحبة يزيد بن معاوية الجون، ابن عم أبيها. وقد فسح لهما السموءل فى قصره، وأضفى عليهما حمايته وكرمه، وسار امرؤ القيس فى وجهته فارغ البال من الهم على عرضه وأمواله وسـلاحه، وكانت وجهته إلى جلِّق قاصدًا ملك العرب بالشـام الحارث الغسانى، يحمل إليه وصيـة من صديقه السـموءل أن يوصله إلى قيصـر، أو يوصى عليه بعض أصدقائه الكثيرين أصحاب الجاه والسـلطان فى قسـطنطينية العظمى لكى يوصلوه إلى قيصر.

أقام امـرؤ القيس فى جلِّق أيامًا فى ضيافـة ملك العرب العظيم مع صديقه عمرو، ينعمان فـى رياض غوطة البريص، ويرويان من مياه بردى العذبة، وكان الربيع الطالع يهز المروج ويبعث أنسامه الوديعة علـى جوانبها تداعبها وتناغيها، ويكسـو الغصون حلية سـاحرة من أزاهيره وأكمامه، ويملأ الجو عبقًـا من أرواح النارنج

والليمـون، ويفيض عليها طربًا من غناء الطيـر فى مطالع الأصباح ومخانس الآصال. ولم يسـتطع امرؤ القيس أن يقاوم أثر هذا الربيع النابض الفائر، فإذا ينسى فى مباهج جلق ومحاسنها أحزانه التى طالما أرقتـه وعذبته فى العامين المنصرمين، فجعل يغالط نفسـه ويكاوحها حتى أحلها من قسـمه الذى أقسـمه - ذلك القسم الذى حرم به على نفسـه الخمر واللهـو حتى يتم انتقامه لأبيه، وقضى فيه السنوات يقاوم ميله ويعصى هواه.

لقـد تطاول عليـه المدى، وعدوه لا يزال يراوغـه ويُفلته حتى أعجـزه، وجعل أعوانه يفارقونه وينفضـون من حوله؛ وألجأه إلى أن يهيم فى الأرض وحده شـريدًا خائر النفس خائب الأمل، حتى انتهى به الأمر إلى أن يخرج من أرض العرب كلها طالبًا مسـاعدة قوم لم يعرفهم، ولم يسـبق له عهد بهم، ذاهبًا نحو قيصر يحاول أن يجـد عنده أمله الأخير فى النصر ونيل الثأر. ولكنه مع كل ذلك خادع نفسـه، ومـا زال بها حتى أوهمها أنه قـد صار فى حل من قسـمه، وأن الخمر قد حلت له بعد أن كانت حرامًا، وأن اللهو قد طـاب له بعد أن كان حمى ممنوعًا. ألم يذهب بنو أسـد من مخافته يضربون فى أوعـر الأرض؟ ألم يركبوا الفدافـد ويقتحموا المهالك والمفاوز حتى لا يصل إليهم؟ ألم يقتل منهم شـيوخًا كرامًا وشبانًا شجعانًا فى المواقع التى سطا عليهم فيها؟ ألم يلجئهم إلى الاستعانة بالملوك والأكاسـرة؟ لئن كان يريد الذهاب إلـى قيصر فما ذلك إلا

ليسترجع ملكه، ويذل خصمه المنذر بن ماء السماء. أما بنو أسد الذين قتلوا أباه وكان عندهم ثأره فإنه قد شفى قلبه منهم وأذلهم وساقهم سوق الصيد المتعب المهيض، بهذا خادع نفسه فى جلق حتى أقنعها، وأقبل على اللهو كالصديان فى القفر يقبل على الماء بعد طول سير. فجعل يعب الخمر عبًّا، ويلتهم اللذات التهامًا فى مجالس سمر حافلة، وحانات شراب صاخبة، بين قينات يعاطينه الراح، وندامى من أهل الشباب والترف يقاسمونه المجون، وهو يغنى لهم ويطربهم كما كان يغنى لأصحابه فى أول حياته إذ يهيم فى الأرض مع الخلعاء والصعاليك. وعاد إلى نفسه الأولى، نفسه الحقيقية التى كانت تدفع به إلى متع الحياة ولهوها وتبعد به فى كل موطن عن جدها وعبوسها ومشقتها. فغنى بهند والرباب، وتغزل فى فرتنى والبسباسة، ولم تكفه الحانات بما فيها من راقصات متهتكات، فاختلس النظرات من خدور القصور، وتمتع بالضمير الفاسق إذا أعجزه الحجاب وقامت دونه الستور. ولقد تبدل فى جلق وانتكس فعاد الشاعر الحالم الماجن، وخلع عن نفسه عزيمة الثائر المحنق الفتاك.

وكان صديقه عمرو يشاركه أحيانًا فى بعض لهوه، ولكنه كان فى أكثر وقته ممتلئ القلب مشغولا بتلك الصورة التى استحوذت على نفسه، تلك الصورة التى تمثلها منذ أخبره أبوه بحقيقة أمه، وهو على فراش موته، تلك الأم الجميلة التى لم يرها ولم يعرفها،

والتـى لا يدرى هل يصل إليها أو تقـوم دونها أبهة الملك فتحول بينه وبين الوصول إليها. فكانت صورتها تلازمه حيثما أقام، حتى لم يجد فيه امرؤ القيس أنيسًـا نديمًا، فكان يتركه فى أكثر لياليه يناجى نفسـه فى جوار بردى حتى يعود وحده إلى الدار التى كانا ينزلان بها فى قصر الملك الغسانى.

كان عمـرو يتمثـل تلك الأم فى ملكها ومجدهـا، تلك الأم التى لا تذكـره ولا تتجه إليه بالحنين. وهل تدع لها حياتها المزدحمة فراغًـا للتفكير فى مثله؟ إنـه ذلك الوليد الـذى أثمرته لها حياة الدنـس مع رجـل عربى غريـب، جمعتها به الحاجة فى أسـود لياليها وأعمقها شقاءً، عندما كانت تلتمس إمساك الرمق من أركان الحانـات المظلمة التى تفوح فيها روائح الخمر، وتملؤها صيحات الدعارة الوحشـية. إنها بغير شك تكتم هذه الذكريات وتقذف بها إلى أعمق مواضع النسـيان فـى صدرها. أتراهـا إذا رأته تحب أن تضمـه بين ذراعيها، كما تحب الأم أن تضم إليها وليدها بعد طول الغيبـة؟ أم تراها ترفع يديها فى وجهه صارخة صرخة الفزع كمن يرى شبحًا مخيفًا؟ ولكن قلبه كان مع كل ذلك لا يفكر إلا فيها.

وكلمـا مـلأه اليأس منها عـاد إليه الأمل يغرر به ويسـتهويه كما يستهوى السراب المسافر الظمآن فى فسيح القفر، فكان يحدث نفسه بأنه سوف يراها، وحسبه منها أن يراها مرة ويتملى بمطلع وجهها المليح حينًا، أو لعله يسـتطيع أن يقبل يديها الصغيرتين،

وينظـر إلـى عينيهـا اللامعتين اللتيـن كان أبوه يذكر سـحرهما وابتسامتهما وهو يتحدث إليه على فراش موته.

سـار الصديقان بعـد أن انقضت مدة إقامتهما فـى جلق ذاهبين إلـى الشـمال وهما ثائرا الشـجن، وتركا وراءهمـا رياض الغوطة وقصور دمشق، وكانا يسيران صامتين وكل منهما غارق فى أحلامه وذكرياته. وكان امرؤ القيس يتلفت وراءه كأنه يريد أن يمتع نظره مرة أخيرة من مراتع لهوه التى يوشك أن يغادرها. وأما عمرو فكان يتطلع أمامه يريد أن يستشف ما وراء حجب الغيب فى الآفاق التى هو مقبل عليها. ولما أوغل بهما السير، وغابت عنهما آفاق دمشق، نظر الشاعر إلى صديقه وهو يتنفس وقال فى نغمة حنين:

فلما بدا حوران فى الآل دونهم نظرتَ فلم تنظر بعينيك منظرا
تقطعُ أسباب اللبانة والهـوى عشية جاورنا حماة وشيـزرا

لكنه وجد صديقه واجمًا لا يطرب معه، فقرب مطيته إليه وقال له: «أسفر يا عمرو. ما بالك حزينًا؟».

فلاحت على وجه الفتى ابتسـامة ضئيلة حزينة وتنفس نفسًـا عميقًا وقال: «وهل لمثلى غير ما ترى من الحزن؟».

فقـال امرؤ القيس فـى خفة مشـيرًا إلى المنظـر البديع الذى حولهما: «ألا تهتز نفسك إلى هذا الجمال يا عمرو؟ املأ صدرك من هذا الهواء، واملأ عينيك من حسن هذه الربى».

فقال عمرو فى فتور: «ليت شعرى ماذا نجد أمامنا؟».

ورفع عينيه إلى صاحبه، وكانت الدموع تملؤها. فقال امرؤ القيس، وقد ظن أنه يشفق من طول السفر: «لا عليك يا أخى من مشقة السير، وتأمل ما وراءه».

فقال عمرو وقد رفع يده يمسح عينيه: «لا أبالى مشقة، ألا ليت شعرى كيف ألقاها؟ ألا ليت شعرى هل أستطيع أن أرى أمى؟».

فأجابه امرؤ القيس ولا يزال مرحًا: «سوف تجدها فاتحة لك ذراعيها، سوف تضمك باكية متلهفة، إذ تجد ولدها بعد طول فراق. إنما هى ليال قليلة. إنما هى ليال قليلة».

ثم جعل يتغنى وهو يضاحك صديقه قائلا:

«أرى أم عمرو دمعها قد تحدرا
بكاءً على عمرو وما كان أصبرا
إذا نحن سرنا خمس عشرة ليلة
وراء الحِسىّ من مدافع قيصرا»

ثم ضرب فرسه فسبق صاحبه واستمر يغنى بصوت خفيض ويقول:

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما
نحاول ملكًا أو نموت فنعذرا

ثم صمت وعاد إلى ذكرياته يناجى بها نفسه، ويتغنى فى شعره بترديد صور لذاته، وما زالا حتى بلغا القرية التى كانت مقصدهما تلك الليلة.

* * *

بعد أسبوعين من هذا السفر الطويل لاحت لهما مياه البحر الزرقاء، وبدت لأعينهما قصور قسطنطينية العظمى تلمع فى شمس الربيع، مشرفة على الخليج ومنحدرة إليه كالحسناء تداعب الموج بقدميها.

فوقفا حينًا يتأملان ماء البحر الأزرق، ومن ورائه الجبل الأخضر، وفى جنباته قطع من الجزائر الزبرجدية تأتلق فيها القصور البيضاء. وكان عمرو ينقل عينيه بين القصور يتوسم أيها قصر أمه، ويسائل نفسه: كيف ينفذ من ثنايا هذا الغنى العظيم، وكيف يجد سبيله بين كل هذه القصور السامقة؛ ولم يملك أن التفت إلى نفسه فى ثيابه الرثة الغريبة التى علاها وعث السفر، وإلى لون يديه اللتين قد لوحتهما الشمس، وقشّفهما طول الجوع والتعب ولفح الهواء، فخارت نفسه، وارتمى على جانب الشاطئ مضطرب الفؤاد دامع العين. فالتفت إليه امرؤ القيس، وامتلأ قلبه بالعطف عليه، وأخذ يواسيه، ويحاول إدخال السرور إلى قلبه، حتى استطاع بعد حين أن يرد إليه نفسه، وأن ينفذ الأمل إليه.

وكانت على مقربة منهما سفينة تريد أن تقلع، فذهبا نحوها، وامرؤ القيس يسند صاحبه حتى نزلا فيها والناس ينظرون إليهما فى لفتة سريعة، إذ لم يكون عجبًا لدى الروم أن يهبط إليهم من أهل الصحراء جماعات بين حين وحين، ليحملوا إليهم تجارة، أو ليشتروا من عاصمتهم سلعًا، أو ليدخلوا فى الجيش العظيم، الذى كان فيه أقوام من أطراف الأرض البعيدة، حشدوا للدفاع عن الدولة وخوض حروبها فى الشرق والغرب، يحاربون جميعًا بسيف قيصر، ويظلهم جميعًا عَلَمُ قيصر.

فعبرا الخليج إلى محط آمالهما بعد حين، ولم يجدا مشقة فى بلوغ قصر الأمير الذى حملا إليه رسائل الحارث الغسانى، فقد كان قصر الأمير حنا رئيس الحرس علمًا من أعلام العاصمة الكبرى.

* * *